الفصل الرابع
هاجر وإسماعيل في وادٍ غير ذي زرعٍ

عندما ذهب إبراهيم عليه السلام إلى بلاد الشام ،وأرض بيت المقدس، واستقر فيها ورأت السيدة سارة رجاء إبراهيم عليه السلام أن يكون له ولد،كانت السيدة هاجر والدة إسماعيل . عليهما السلام . أمة لسارة زوج سيدا إبراهيم من قبل جبار مصر الذي وهبها لها، وقد وهبتها سارة لزوجها إبراهيم :لعلها تنجب له الولد الذي يتمناه. وما هي إلى أشهر قليلة حتى رزقه الله سبحانه وتعالى الولد من هاجر.. فكان إسماعيل عليه السلام قرة عين لإبراهيم عليه السلام ،وفرح به أشد الفرح.. ولكن الغيرة دبت في قلب السيدة سارة شأنها شأن أي امرأة أخرى.. :فغارت من هاجر، ومن حب إبراهيم لولده إسماعيل.. فأراد الله سبحانه أن ينزع تلك الغيرة من قلبها :فأوحى إلى نبيه إبراهيم عليه السلام أن يأخذ هاجر، ورضيعها إسماعيل وأن يتركهما في مكة.. :وذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى.. فأخذ إبراهيم عليه السلام هاجر، وولدها إسماعيل ،ثم تركهما في مكة حيث لا إنس ،ولا وحش ،ولا طير، ولا زرع، ولا ماء بل صحراء جرداء ،وجبال شاهقة ،والشمس بوهجها تكاد تخطف الأبصار.. ثم تركهما وهمَّ بالذهاب.. فلما رأته السيدة هاجر يذهب استوقفته، وقالت له : كيف ستتركنا في هذه الأرض الموحشة ؟ فلم يرد عليها إبراهيم عليه السلام.. وهنا فطنت السيدة هاجر بقلبها إلى أن هذا الفعل إنما هو أمر من الله سبحانه وتعالى لنبيه.. فرضيت بقضاء الله

تعالى وأيقنت أنه لن يضيعها هي ولا رضيعها. فاطمئنان قلب هاجر إنها وولدها في معية الله فهذا الاطمئنان الذي يملأ قلبها جعلها تتقبل ما فعله إبراهيم . فتركته يذهب وبقيت هي في هذه الأرض المقفرة؛ وهنا دعا إبراهيم عليه السلام ربه بكلمات رقيقة؛ كما ذكر بالقران الكريم

قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم:٣٧].

وبعد ساعات قليلة من رحيل إبراهيم عليه السلام نفد الماء والطعام الذي كان معها.. فقامت تبحث عن مخلوق في هذه الأرض،أو زرعة، أو عين للماء.. فأخذت تجري هنا وهناك ويمينًا ويسارًا في محاولة لإيجاد أي شيء.. صعدت على جبل الصفا وأخذت تنظر من عليه علَّها تجد شيئًا.. ولم تجد، هبطت من عليه وصعدت على جبل المروة ،وأخذت تنظر حولها فلم تجد شيئًا.. وأخذت تكرر ذلك الأمر سبع مرات دون جدوى.. سبع مرات تجري كل هذه المسافة تحت أشعة الشمس الملتهبة ،وفوق تلك الرمال المحرقة!!ما اليقين الذي جعل هاجر تفعل هذا ؟ تجري سبع مرات من هنا إلى هنا، وهى تعلم أنها في واد لا حياة فيه أنه يقين القلب المطمئن برحمة الله بعبده فقد أوجزت بقولها إنَّ الله لن يضيعها هى ورضيعها، وعند ذلك.تحقق اليقين يقين العين، ، فيبعث الله جبريل -عليه السلام- فيضرب الأرض بجناحه؛ لِتَخْرُجَ عينُ ماءٍ بجانب إسماعيل ، فتهرول الأم نحوها وقلبها ينطلق بحمد الله على نعمته، وجعلت تغرف من مائها، وتحاول جاهدة إنقاذ فلذة كبدها،

وتقول لعين الماء: زُمّي زُمّي، فسميت هذه العين زمزم. ليرتوي هو وأمه وليصدّق دعوة إبراهيم عليه السلام {وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ}.

قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم لكانت عينًا معينًا» (رواه البخاري). وبشَّرها جبريل عليه السلام بأن بيت الله الحرام سيُبنى في هذا المكان عن طريق ولدها إسماعيل وأبوه إبراهيم ، وأن الله لن يضيعهم أبدًا لأنهم أهل بيته الحرام.

هذه هي هاجر أم الذبيح وأم العرب العدنانيين، رحلت عنا بعدما تركت لنا مثالا رائعًا للزوجة المطيعة، والأم الحانية، والمؤمنة القوية ؛ فقد أخلصت النية للَّه تعالى، فرعاها في وحشتها، وأمَّنها في غيبة زوجها، ورزقها وطفلها من حيث لا تحتسب.

وقد جعل الله - سبحانه - ما فعلته السيدة هاجر - ﷺ- من الصعود والسعي بين الصفا والمروة من أعمال الحج، و توفيت ، ودفنها إسماعيل - عليه السلام- بجانب بيت الله الحرام.